الوعي التاريخي العربي والكتابة التاريخية العربية

I

« ألم. غُلبت الروم في أدنى الأرض ـ وهم من بعد غَلَبهم سَيَغْلبون في بضع سنين. لله الأمْرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصرالله؛ يَنْصُرُ مَنْ يشاءُ وهو العزيزُ الرحيم»؛ « ... عن عكرمة أنّ الرومَ وفارس اقتتلوا في أدنى الأرض. قالوا: وأدنى الأرض يومئذٍ أذْرعات؛ بها التقوا فهُزمت الروم. فبلغ ذلك النبي (ص) وأصحابه وهم بمكّة فَشَقَّ ذلك عليهم. وكان النبي (ص) يكرهُ أن يظهر الأُمّيّون من المجوس على أهل الكتاب من الروم: ففرح الكُفّار بمكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبي (ص) فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخوانُنا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب؛ وإنكم إن قاتلتمونا لنظهَرَنّ عليكم؛ فأنزل الله: ألم. غُلبت الروم... فخرج أبو بكر الصّديق إلى الكُفّار.. فناحَبَهم (راهَنَهم) على ظهور الروم بعد سنين...» [تفسير الطبري ١٣/٢١].

ما كانَ العربُ إذن بمنأى عن التطورات التاريخية المهمة التي كانت تحدث على أطراف الجزيرة إبّان البعثة النبوية. لقد كانوا يُحِسّون أنهم مَعْنيّون بما جرى ويجري. وآيات مطلع سورة الروم تكشف موقفاً تاريخياً معيّناً إبّان البعثة وفي سنواتها الصعبة الأولى. ويبدو لأول وهلة أنّ قُريشاً الوثنية كانت تقف مع الفرس؛ في حين وقف النبي وأتباعه القلائل آنذاك مع الروم. لكنّ رجوعاً إلى الوراء لا يتجاوز العقدين من السنين يُطْلِعُنا على صورةٍ أخرى للمسألة. فحوالي العام ٥٩٠ للميلاد حاولت بيزنطة مدّ سيطرتها على الطريق التجاري الصحراوي إلى داخل الجزيرة عن طريق السيطرة على مكة؛ فناصرت قُرَشياً مسيحياً هو عُثمان ابن الحويرث رجَتْ أن يُتَوِّج ملكاً شأن أمراء بني غسّان بالجولان ـ لكنّ قُريشاً أبت الخضوع ونفت ابن الحويرث مُخاطرةً بتجارتها إلى الشام. وبعدها بقليل حوالي العام ٦١٠ م كانت بطونٌ قبليةٌ عربيةٌ تشتبك مع الفرس في الناحية الأخرى من الجزيرة وعلى تخومها بذي قار. كانت الصراعات الفارسية/البيزنطية قد تصاعدت بحيث ألغت دور الأمراء العرب الصغار على الأطراف بالشام والحيرة؛ ولم يعد الطرفان يرضيان بغير السيطرة المباشرة؛ وقد تصدّى لهم أبناءُ الجزيرة في الحالتين وعلى الجانبين ـ بعد إذ نجحت قريش في تثبيت نظام «الإيلاف» الذي قضى على أُسطورة الفراغ الداخلي بالجزيرة، وَبَلْورَ قيام السوق الموحّدة واللغة الموحّدة ـ

دعامتي الوعْي العربي البارزتين قبل الإسلام. لهذا ففي حين تُظْهِرُ سورةُ الروم اهتمام العرب ووعيهم بما يجري حولهم، واعتمادهم في استقلاليتهم المحدودة على «التوازن الدولي» آنذاك - تُظهر العمليات العسكرية للرسول (ص) باتجاه خيبر ووادي القُرى وتبوك ومؤْتة فيما بعد إرادةً واضحةً لكَسْر مقولة العيش من ضمن التوازن المطروح. كان المنطقي أن يُهاجم النبي الفرس لكنه هاجم الروم الذين كان قد تعاطف معهم إبّان ظهور الإسلام. وكما عكس الموقف الأول وعياً معيناً بحقيقة الصراع الدولي آنذاك؛ فقد عكس الموقف الثاني وعياً جديداً بالمتغيرات. كانت فارس بعد وفاة كسرى أبرويز قد غرقت في صراعات داخلية رهيبة فانكمشت بعد هزيمةٍ ساحقةٍ أمام البيزنطيين عام ٦١٤ م - كما تنبّأ القرآن. والضعف الفارسيُّ هذا جعل الروم مطلقي الأيدي في الشام وتخوم الجزيرة. وهكذا كان على النبي (ص) وصحبه إذا أرادوا التحرر ونشر الدعوة أن يستغلّوا انشغال فارس بمشكلاتها الداخلية ليكفكفوا من هجوم الخطر البيزنطي فلا يضطروا فيما بعد للقتال على جبهتين. فلم تكن المسألة في النهاية أيّ الطرفين أقرب إلى المسلمين في الاعتقاد؛ بل كانت القناعة بأنَّ العيشَ من ضمن التوازن الفارسي/البيزنطي واللعب عليه لا يمكن أن يستمرّ ويظلّ أساساً للحياة العربية/الإسلامية. وكان البديل: محاولة كسر مقولة التوازُن عن طريق كسر أحد طرفيه في المنطقة العربية. وكانت هذه البداية التي عكست تغيراً جذرياً في الوعْي التاريخي العربي؛ هي التي أسهمت بالآليّة التي أدخلتْها على الموقف والموقع التاريخيين - في طرح بديل الأمة ذات الدين الواحد والشرائع المتعددة؛ بعد خلخلة مقولة التوازن في اليرموك والقادسية.

II

(أ) «.. إنهم لم يكونوا يؤرّخون على أمرٍ معروف يعملُ به عامّتُهُم وإنما كان المؤرخُ منهم يؤرّخ بزمان قحمةٍ كانت في ناحيةٍ من نواحي بلادهم، وَلَزْبةٍ أصابتْهُم أو بالعامل كان يكونُ عليهم أو الأمرُ الحادث فيهم ينتشر خَبَرُهُ عندهم. يَدُلُّ على ذلك اختلافُ شعرائهم في تأريخاتهم؛ ولو كان لهم تأريخٌ على أمر «معروفٍ» وأصْلٍ معمولٍ عليه لم يختلف ذلك منهم..». [تاريخ الأمم والملوك للطبري ١/١٢٥٤].

(ب) «.. عن ميمون بن مهران؛ قال؛ رُفع إلى عمر صَكٌّ مَحِلُّهُ في شعبان فقال عمر: أيّ شعبان الذي هو آتٍ أو الذي نحن فيه؟! قال؛ ثم قال لأصحاب رسول الله (ص) ضَعُوا للنسا شيئاً يعرفونه! فقال بعضُهُم: اكتبوا على تأريخ الروم! فقيل: إنهم يكتبون من عهد ذي القرنين فهذا يطول. وقال بعضهم: اكتبوا على تأريخ الفرس! فقيل: إنّ الفرس كلّما قام ملكٌ طرح مَنْ كان قبله فاجتمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله (ص) بالمدينة فوجدوه عشر سنين. فكتب التأريخ من هجرة رسول الله (ص)..». [تاريخ الأمم والملوك للطبري ١/١٢٥١].

(ج) « .. تاريخ كل شيءٍ آخره؛ وهو في الوقت غايته والموضع الذي انتهى إليه. يُقالُ: فُلانٌ تاريخ قومه ـ أي إليه ينتهي شَرَفُهم. ويقال: ورّخْتُ الكتاب توريخاً وأرخته تأريخاً؛ اللغة الأولى لتميم والثانية لقيس. ولكل مملكةٍ وأهل مِلّةٍ تاريخ. وجماعُ القول في تواريخهم أنّهم يؤرخون بالوقت الذي تحدثُ فيه حوادث مشهورةٌ عامّة...». [تاريخ دمشق لابن عساكر ٢١/١/١].

إذا كان «تاريخ كل شيء آخره»؛ فإنَّ العلم المعروف بهذا الاسم [علم التاريخ] إنما يعالج «صورة» قد اكتملت. إنّ موضوعَهُ هو «الماضي» [قارن ببحث فابر: ما هو التاريخ ـ في هذا العدد]. إنه إذن «تحصيل حاصل» ـ كما يقول المنطقيون. فإذا أردنا تلّمسَ الجديد في هذا الماضي أو هذا القديم وجدنا الجانب «التركيبي» في «الصورة» من ناحية، ووجدنا «اللحظة» التي نُمارسُ فيها التركيب المذكور. إنَّ «اللحظة» المذكورة بالذات تُدخِلُ على مفهوم «الزمان» حركيةً لا تتوافرُ له في ماضويته البحتة. إنّ الماضوية البحتة هي تلك التي ترى في الزمان «ساعات الليل والنهار» [تاريخ الطبري ٧/١]. وعندما يكون هذا هو الزمان؛ نفهمُ مسعى عمر بن الخطّاب للتأريخ. إنّك تستطيعُ البدءَ من أي نقطةٍ تختارُها: بأيِّ ساعةٍ من ساعات الليل والنهار؛ « .. ولتعلموا عددَ السنين والحساب» [القرآن الكريم/سورة الإسراء ١٢]. وقد تكونُ اللحظةُ المختارةُ (الهجرة النبوية في هذه الحالة) موقفاً تركيبياً بحدّ ذاته: لكنَّ اللحظة الأُخرى؛ لحظة الكتابة ـ أو ظرفها ـ لا تحضر هنا وسط هذا المفهوم الآلي بل التقني للتاريخ.

وبوسعنا أن نحدّد ثلاث مجالاتٍ للمسألة: مجال الحَدَث، ومجال الصورة، ومجال اللحظة الناظرة. فإذا ظلَّ الزمانُ هو «ساعاتُ الليل والنهار»، وظلّ «التاريخ كلّ شيءٍ آخره»؛ كنا نمارسُ الحدثية (Geschichte) فقط مُسقطين من حسابنا المجالين الآخرين. لكنْ: هل المشكلة هي مشكلة المصطلح؟ بمعنى أنَّ «التاريخ» بوصفه مفرداً أو لفظاً عاجزٌ عن الوصول شمولاً إلى شمول المفهوم؟! لا أحسب أنّ هنا تكمن المشكلة إذ «لا مُشَاحَةَ في الاصطلاح» بل إنّ هناك صراعاً مفهومياً على المسألة أو المسألتين (الثانية والثالثة) بين تياري التأريخيين والمؤرّخين. إنّ أحدنا يستطيع أن يتتبَّعَ آثار تيار التأريخيين في أعمال خليفة بن خيّاط وأبي زُرعة الدمشقي ويعقوب بن سفيان الفَسَوي. بينما يشكّلُ الطبري مرحلةً وسطاً بين هؤلاء؛ وتيار المؤرخين من أمثال البلاذري واليعقوبي والمسعودي. لكن أين يكمن الخلافُ بالضبط؟

III

«... إنما أنا رحمةٌ مُهداة».. « .. أنا آخرُ الأنبياء وأنتم آخرُ الأُمَم». وتكتمل الحلقةُ عندما نلاحظ أنّ عمر بن الخطّاب وأصحاب النبي الآخرين اختاروا الهجرةَ بدءًا للتاريخ. فالهجرةُ كانت البدء العمليّ لتحقُّق الجماعة في الأمة والأُمّة في العالم. قامت الجماعةُ الإسلامية

الأولى والأساسية بالمدينة؛ وكان عليها باعتبارها نواةَ الأُمّة أنْ تُمارسَ الدعوة والجهادَ لاستيعاب العالم وضمّه الى عالم الدعوة الجديد؛ وهدفُها التطابُق بين الجماعة والأمة على المدى البعيد. هكذا تكونُ الأمةُ في حالة تحقّقٍ مستمرٍّ فيكون التاريخُ هو كَشْفٌ لعملية التحقّق هذه؛ ولأنّ الجماعة مستمرة، وفكروية الأمة مستمرة؛ فإنّ رحاب الماضي تتّسع، وتتّسعُ رحابُ التاريخ بالتالي فلا يعود تأريخاً محدّداً لماضٍ انتهى؛ بل يظلّ رؤيةً لأحداثٍ لم تكتملْ بعد. ويُدْخِلُ هذا تغييراً على مفهوم الزمان التاريخي فتنضوي «الآنات» أو «الساعات» في سياق الكُلّ الشامل. يقول أبو العلاء: «قول بعض الناس؛ الزمان حركةُ الفلك؛ قولٌ لا حقيقة له... ما أجدره... أن يُقال: الزمان شيءٌ أقلّ جزءٍ منه يشتمل على جميع المُدْرَكات...» [رسالة الغفران ٤٢٦].

هنا تتوازى رؤى المؤرخين المسلمين للمسألة. فالمحدّثون والنصّيّون والسلفيون بشكلٍ عامٍّ يتلمّسون الذروة في «زمن النبوة»؛ ثم يقطّعون الأيام والليالي والآنات بعد ذلك محاولين تلمس أقباسِ النبوة فيها مع اعتقادٍ مسبق أنّ «الماضي»؛ ماضي الجماعة والأمة هو الذروة والمثَل؛ وما بعد ليس في أحسن حالاته غير ترجيع وتكرار ـ لكنْ بغير نبيٍّ وراشدين. هنا يكونُ التاريخُ ساعات الليل والنهار، والشهور والسنين والأعوام.

أما المتشبّعون بمقولة الأمة القادمة، الصائرة الى اكتمال فإنهم لا يتأمّلون «الحدث» بحدّ ذاته بل يتتبّعونه في سياقه من فكروية الجماعة في الأُمّة، والأُمّة في العالم. إنه التاريخ الشامل والمتجدد والمتابع (والمخطّط) لحركة الجماعة دعوةً وجهاداً وتعرّفاً على العالم واستيعاباً له.

بدأت المسألةُ مُحاولةً للنفاذ والعيش من ضمن التوازن الدولي السائد مطالع القرن السابع الميلادي، ثم تطوّرت إلى وَعْيٍ باستحالة التطور والاكتمال بعد كَسْر التوازن بكَسْر مقولته. وانتهت بوعْيٍ عميقٍ بوحدة العالم ووجوب توحيده ـ فتراجع الزمن الميلادي لصالح زمن النبوة والأمة.

★★★★

كانت خطتنا قبل عامٍ إصدار عددٍ أو عددين في «فكرة التاريخ وتقنيات الكتابة التاريخية»؛ وكان المُرادُ في مجال «التقنيات» التركيز على العلوم التاريخية المُساعدة، وشروط الكتابة التاريخية العلمية. لكنّ الإسهامات التي تلقّيناها في المجال الثاني لم تكن عدداً وجديةً في المستوى المطلوب؛ لذلك آثرْنا أن يكونَ العددان في «فكرة التاريخ والكتابة التاريخية العربية» على أن نُصدِرَ عدداً في «تقنيات الكتابة التاريخية» فيما بعد؛ فتكتمل بذلك دائرةُ الكتابة في التاريخ في مجلة «الفكر العربي»؛ إذ سبق أن أصدرنا عدداً في «التاريخ والمنهج»؛ وبالله التوفيق.

رضوان السيد